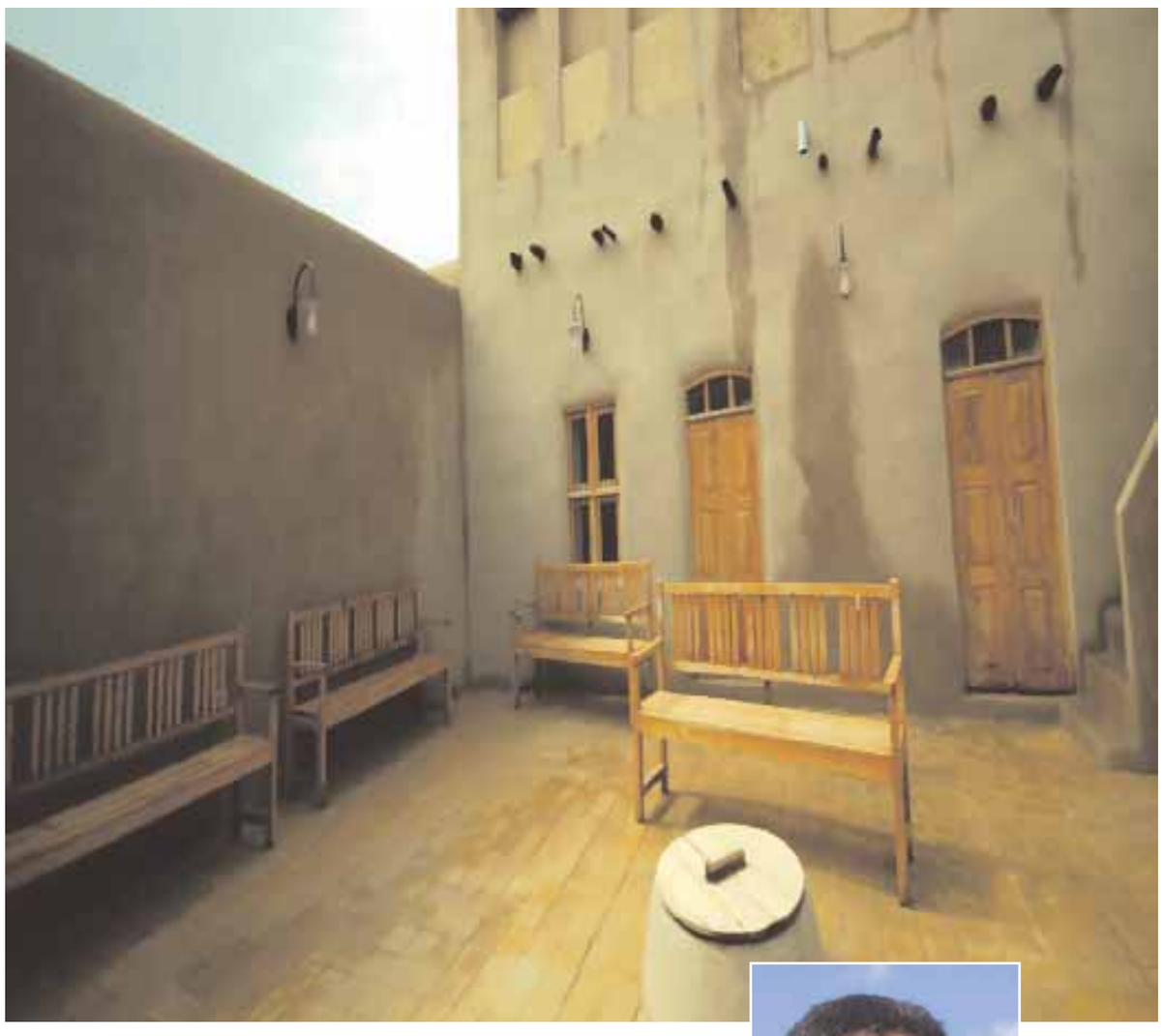

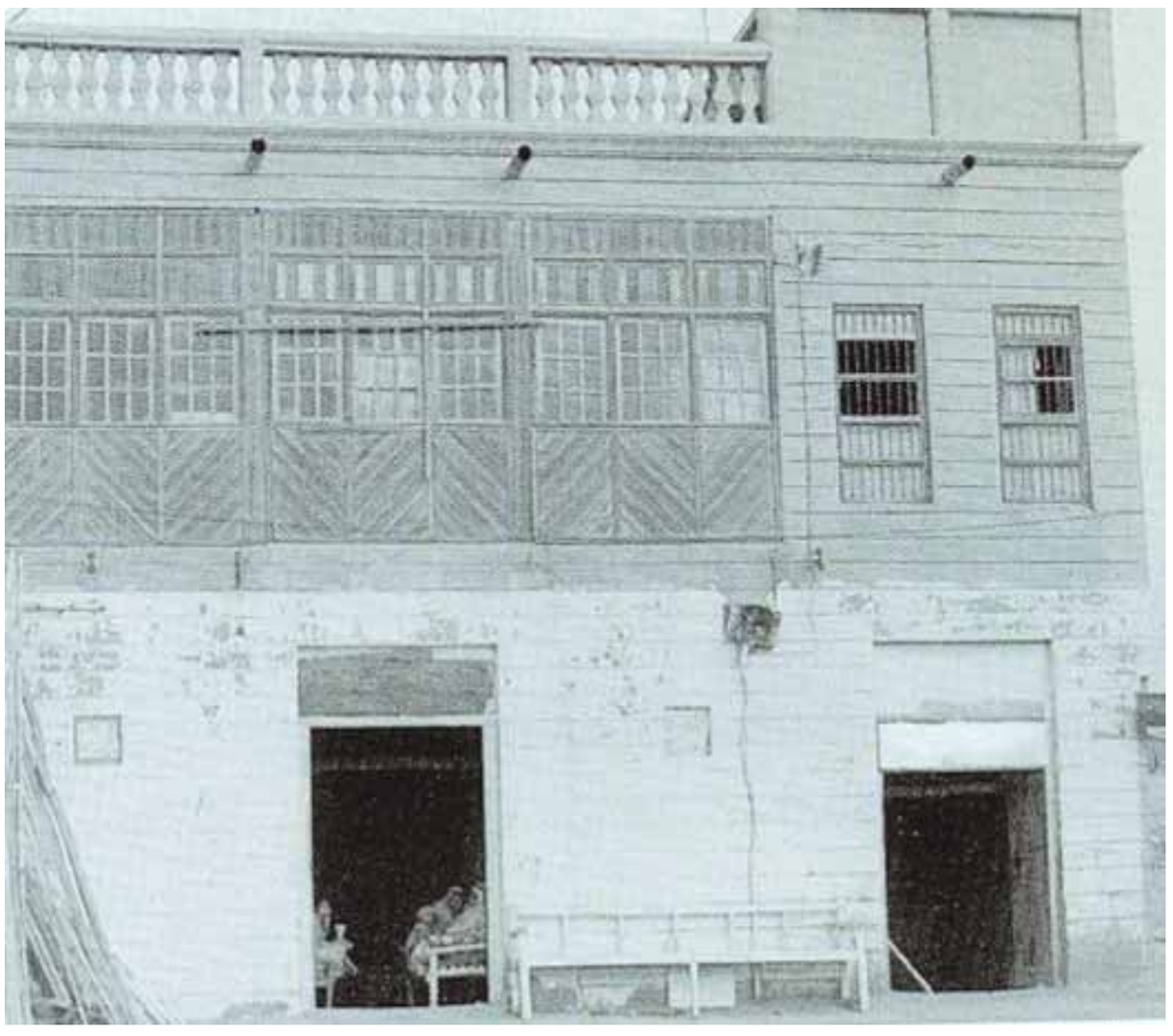

■ د. وليد أحمد السيد

يوميات معماري في الكويت «٩»:

البيت الكويتي التقليدي: البنية التركيبية والحياة الاجتماعية

تاريخ متحول "فيزيائيا" واجتماعيا

من اللافت أن البيوت التقليدية، عموما، كانت تجمع أكثر من جيل تحت سقف واحد، بما يعرف سابقا "بالأسرة الممتدة"، وهو نظام اجتماعي أسري كان يعكس تلاحم الأسرة الواحدة وتقاربها بشكل يجعل الجد المؤسس في تقارب وتعايش مع أولاده وأحفاده، وبما يعكس تكافلا أسريا وعلاقات حميمة، سادت قديما، واندثرت حاليا مع اندثار هذه البيوت التقليدية، والإنتقال من مراكز المدن التقليدية إلى أطراف المدن الحديثة المتمددة أفقيا ورأسيا، وانتقال العائلات "النووية" الصغيرة للعيش في شقق سكنية مرتفعة عن الأرض وتتراص بطريقة بها "نزعة تجارية عقارية رأسمالية" داخل صناديق رأسية في عمارات سكنية بالكاد يعرف الجار فيها جاره – أو قد يتجنب ذلك أصلا درءا للنزاعات والمشاكل.

بيت الغانم كنموذج للبيت الكويتي التقليدي

يعود تاريخ إنشاء بيت الغانم للعام ١٩١٩ م، حيث أنشأه التاجر الكويتي السيد جاسم بن محمد الغانم الجبر، والذي يعد أحد أكبر تجار اللؤلو في الكويت. ويعتبر البيت من أكبر البيوت التقليدية من حيث المساحة إذ تبلغ حوالي ١٦٠٠ متر مربع، كما يعتبر من أحد النماذج المتميزة للعمارة الكويتية التقليدية، ويعكس توزيع الأفنية في البيت ومداخله المتعددة بالنسبة لاتجاه حركة الشمس القدرة الفائقة على فهم طبيعة الحياة داخل البيت خلال ساعات النهار وطبيعة تعرض أجزاء البيت المختلفة للشمس وحجب أجزاء أخرى عنها من خلال الأفنية الأربعة ذات الوظائف المختلفة والطبيعة الإجتماعية الخاصة التي تفصل حركة وحياة القاطنين بناء على السن والمكانة والجندر أو (الجنوسة).

ولبيت الغانم التقليدي مراحل مر بها عبر قرن تاريخي ماض منذ أوائل القرن العشرين وحتى اليوم صبغت الحياة الاجتماعية به، لكنها، ولحسن الحظ، لم تغير من طبيعة تكوينه العمرانية، بل حافظ على جماله وازداد من خلال تحوله إلى مرسم للفنانين كما هو حاله اليوم بما يرفع من قيمته الرمزية. المرحلة الأولى للبيت كانت منذ إنشائه عام ١٩١٩ م وحتى عام ١٩٥١ م وهي فترة تجلت فيها مظاهر الحياة الاجتماعية بأجلى معانيها في هذا البيت التقليدي حيث كان بيتا لآل الغانم بكل ما تعنيه مظاهر الحياة الإجتماعية لأحد كبار التجار الأثرياء في مدينة الكويت في مطلع النصف الأول من القرن العشرين. أما المرحلة الثانية كانت من عام ١٩٥١ م وحتى عام ١٩٦٠ م حيث شهد التكوين العمراني للبيت توسعة من الجهة الجنوبية الشرقية تمثلت في ساحة وملحق بها مدخل خلفي للبيت وتنتشر بها حاليا مسبك ومخزن. أما المرحلة الثالثة فتمثل البيت التقليدي بتكويناته منذ عام ١٩٦١ وحتى اليوم، والتي بدأت بمغادرة آل الغانم للبيت والانتقال للسكن في أحد الأحياء الحديثة من مدينة الكويت. وفي هذه المرحلة تم تحويل البيت إلى مرسم للفنانين ليرمز إلى احتضان معلم من معالم التراث في مدينة الكويت للحركة الفنية المعاصرة. وتم تجهيز البيت بمسبك وورش عمل فنية في موقع حوش الحيوانات سابقا وتحولت غرفه إلى مراسم للفنانين يشترك في كل غرفه فنان أو اثنان ويمارسان الرسم. وهو ما رفد الحركة الفنية وكان انطلاقة للكثير من رواد الفن الكويتي الحديث. وانتج هذا الاحتضان ما يعرف "بمعرض الربيع" الذي أسهم في إبراز الكثير من مواهب الفنانين والفنانات الكويتيين على مدى العقود الماضية.

العوامل الاجتماعية كناظم للسلوكيات في البيت التقليدي

وقد امتازت العمارة في الكويت كغيرها من بلاد الخليج ذات المناخ القاسي باستجابتها المباشرة لعوامل مختلفة أبرزها مناخية لتتلاءم مع طبيعة العوامل المناخية المتغيرة بين الليل والنهار وبين الفصول المختلفة. ولذلك فقد اشتهرت العمارة الكويتية خصوصاً والخليجية عموماً بنشوء وتطور مفردات معمارية متميزة. وحري ذكره أنه من السطحية بمكان أن يتم حصر هذه النشأة والتطور التي تمت على مدى أجيال متعاقبة في العوامل المناخية وحدها، إذ لابد أنه كان للعوامل الاجتماعية البيئية المختلفة والثقافة المحلية أدوار مهمة في هذه النشأة تتداخل معاً لإنتاج المفردات بالصورة التي نراها اليوم.

وقد كان للعوامل المناخية دور واضح في تشكيل البيئة العمرانية وتكوين أبجديتها، لكن ثمة عوامل أكثر عمقاً وهي النواحي الاجتماعية للبيئة العمرانية، والتي تدخل في بنية وتكوين البيت الكويتي تحديداً، تمثلها ملامح التقاليد اليومية والمعيشية الكويتية التي بلا شك تصوغ المبادئ والقيم وأنظمة السلوك والتصرف بين الأفراد داخل البيت الكويتي وضمن المجتمع بشكل عام. وهذه القوانين تستمد أطرها العامة من الإسلام كنظام حياتي اجتماعي مهيمن، فيما تنبثق مجموعة من القيم الاجتماعية المحلية التي تشكل البيئة الكويتية ضمن فترات مختلفة كل لها طابعها ونمطها.

والبيوت التقليدية، والتي غالباً ما كان تخطيطها عفوياً، بمعنى ندرة وجود مخطط مسبق للفراغات قبل البناء وكما هو الحال في العمارة المعاصرة، إنما هي انعكاس مباشر وصادق للعادات والقيم التي تمليها ظروف الحياة اليومية، وكذلك الحاجات والعادات والسلوكيات التي يمارسها أفراد المجتمع كل يوم وفي المناسبات العامة بالإضافة إلى الأفراح والأتراح. وإن تتبعنا نمط الحياة الاجتماعية، في إطار التكوينات الفراغية للبيت التقليدي لوجدنا هذه العلاقة الوثيقة لا تنفصم، بحيث يشكل كل حيز فراغي ضمن البيت جزءاً من المنظومة، لا نقول الفراغية، إنما الاجتماعية. وكأن هذا الفراغ هو تعبير حسي عن قيم اجتماعية لا حيزاً حلولياً للمكوث أو الانتقال عبره. وهذه القيمة تعطي للأحيزة الفراغية بعداً رابعاً يتجاوز الأبعاد الحسية التي تضيق بالمعاني والقيم التي يمكن أن نستخرجها من هذه الأحيزة الفراغية. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أية محاولة لقراءة هذه الأحيزة الفراغية بمعزل عن القوى الباعثة لنشأتها وتطورها لهي أشبه بمن يحاول قراءة قوة فيزيائية بمعزل عن القوى المحيطة والتي تشكل طرفي المعادلة.

البنية الاجتماعية وتركيبة البيت التقليدي

يتكون البيت التقليدي في الكويت غالباً من عدد من الأفراد الذين يشكلون عائلة ممتدة. حيث يتكون من الوالدين وأطفالهما وواحد أو اثنين من الأجداد وأحيانا القريبات المطلقات أو الأرامل، وفي بعض الأحيان مجموعة من الخالات والعمات وأبناء العمومة. يضاف إليهم بعض الخدم لدى العائلات الموسرة. وثمة علاقات أكثر تعقيداً بين أصحاب البيت والزوار. إذ ينفصل البيت إلى قسمين تبعاً لنوع الزائر ومدى علاقته وقربه من أهل الدار. ولذلك فهناك الجزء المخصص للحريم الذي ينعزل وبخاصة في البيوت والتي تتكون من طابق واحد وأحياناً تبنى غرفة علوية تفتح بنافذة مطلة للخارج مغطاة بالمشربية لجلوس سيدة البيت ويتم الوصول إليها من درج خارجي من الفناء مثلاً. ولذلك فإن البيت التقليدي يعكس الفصل التام بين الجنسين من خلال التوزيع الفراغي للبيت مع وجود ساحة مشتركة، أو ساحتين إن كان البيت كبيراً بما فيه الكفاية واحدة للرجال وأخرى للنساء. وتنعكس هذه التركيبة الإجتماعية داخل البيت الكويتي انعكاسا مباشرا على توزيعاته الفراغية وبنيته التركيبية، ولذلك يبدو مناسبا التطرق لوصف عناصر البيت التقليدي الفراغية.

تتشكل الأحيزة الفراغية في البيت الكويتي التقليدي، والذي غالباً ما يتكون من طابق أرضي رئيس بحسب المصادر الأدبية، من مجموعة فراغات تتمحور حول فناء يخصها ويشكل محور الأنشطة التي عمادها رب البيت، ومن هذه ما يعرف بالديوانية وهي قاعة استقبال الرجال حيث يقضون أوقاتهم في مقابلة أصدقائهم وجيرانهم والتسامر معهم، وغالباً ما تفتح للخارج ولذا يسهل التردد عليه دون تحرج. ويغلب وجود الليوان في البيت الكويتي وهو ممر مسقوف محمول على أعمدة على طول الفناء الداخلي من جانبين فقط إن كانت الساحة خاصة بالرجال، أو من الجوانب الأربعة إن كانت الساحة للنساء. وغالباً ما يتم الدخول لقسم الحريم من مدخل مستقل أو من خلال مدخل بطرف ساحة الديوانية. وتعتبر ساحة الحريم بمثابة مكان المعيشة للنسوة بالبيت حيث يشعرن بالحرية والأمان في استعمال المكان بعيداً عن تدخل الغرباء وكذاك حيث يستقبلن صديقاتهن أو نسوة الجيران.

أما الأحيزة الفراغية الخاصة بالصبيان فتشمل الساحتين الداخلية أو الشارع الخارجي أو أحياناً سطح البيت، وينطبق هذا على الفتيات حتى سن البلوغ حيث يتبعن قسم الحريم. وتشمل الأنشطة النهارية الساحات وقاعات الاستقبال والمطبخ الذي يكون ضمن قسم الحريم بالإضافة إلى غرفة ملحقة بتخزين الوقود وتخزين الحبوب وبعض الأغذية الموسمية، وفيه يتم الطهو على الأرض في القدور وكذلك صنع الخبز المحلي باستعمال الكانون التقليدي. كذلك نجد أن الأحيزة الليلية تشمل غرف النوم التي تنعزل عن بقية البيت لتوفير الخصوصية والهدوء. ومما يجدر ذكره أن سطح المنزل الكويتي هو جزء مهم يستعمل في الكثير من المناسبات وفي النوم ليلاً في ليالي الصيف الحارة. وفي البيوت الكبيرة يمكن وجود ساحة تتم فيها تربية الحيوانات والدواجن والطيور وحيث تلحق بالساحة المأوى الخاص بهذه الحيوانات البيتية.

البيت التقليدي الكويتي والحياة الاجتماعية

يبدأ نظام الحياة اليومية منذ الصباح بانطلاق الذكور إلى عملهم أو الطلاب إلى مدارسهم، وفي هذه الأثناء تشرف سيدة البيت على عمليات التنظيف والطهو وإعداد الطعام وكذاك إرسال الخدم لشراء ما يلزم البيت من السوق. وفي فترة الظهر يعود رب البيت لتناول الطعام وتخلد الأسرة لفترة نوم غالباً ما يعود سببها لدرجة الحرارة العالية في تلك الفترة. أما نمط الحياة الموسمية فيتبع العادات التي تنبثق من الإسلام كشهر رمضان المبارك والعيد حيث تستعمل الفراغات المختلفة بالبيت في استقبال الزوار والتعبير عن هذه الأفراح. وتشهد المناسبات الدينية كالأعياد الأنشطة التي تقع في الفراغات العامة كالديوانية لاستقبال الرجال والساحات العامة داخل المنزل وضمن الحي أو المتجاورة السكنية. ولذلك فمن المناسب القول أن الأحيزة الفراغية تصمم تبعاً لطبيعة الاستعمالات الاجتماعية ويتراوح استعمالها زمنياً وضمن إطار المناسبة التي يشهدها أهل الدار أو الحي والمجتمع المحلي.

وفي دراسة علمية أجراها كاتب هذه السطور على أربعة نماذج من بيوت تقليدية كويتيه كعينات مختارة، بينت الدراسة أن لهذه البيوت نمطية متميزة من حيث ترتيب الاحيزة الفراغية الوظيفية بالبيت الكويتي، فقد بينت الدراسة أن الفناء الرئيس للبيت هو الأكثر اتصالا مع فراغات البيت الأخرى، بمعنى احتلاله للموقع الأهم بالبيت من حيث السيطرة والتحكم بالأحيزة الفراغية الأخرى، بينما بينت الدراسة في ثلاثة بيوت من أصل أربعة أن قاعة استقبال الرجال كانت الأكثر انعزالية بالبيت وهي نتيجة مدهشة، إذ تعكس طبيعة التفاعل بين الزوار والرجال من البيت بعزلهم عن بقية البيت.

وقد كان من نتائج الدراسة التحليلية أيضا ان قاعة استقبال النساء تحتل موقعا استراتيجيا مع فراغات البيت أكثر من قاعة استقبال الرجال وذلك في البيوت الاربعة جميعا، ولا يعني ذلك انتفاء الخصوصية عن قاعة استقبال الحريم او جناح الحريم بشكل عام إنما يدل على أن هذا الجناح اكثر اتصالا باحيزة فراغية اخرى حيوية ضمن البيت أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لجناح الرجال. في الوقت الذي كان لكل من الجناحين مدخل منفصل وساحة منفصلة، لكن المهم من هذه النتائج ان جناح النساء يبدو اكثر فعالية من جناح الرجال وهي فيما يبدو ظاهرة خاصة بالبيت الكويتي، لم تكشفها دراسات مماثلة أجريت على البيت التقليدي في بغداد أو مثلها في البيت التقليدي في صنعاء.

وقد بينت الدراسة أيضا أن بقية الاحيزة الفراغية الاخرى بالبيت نمطية متوازنة وموحدة بين البيوت الأربعة، فمن ناحية نجد ان المدخل الخاص بالنساء يحتل قيمة تكاملية عالية، وهذا يلقي بظلاله على الطبيعة التكوينية المتميزة للبيت بحيث يسمح للنساء بالدخول والخروج وفي نفس الوقت يحافظ على استقلالية وخصوصية النساء وزوارهن في آن واحد، ومن ناحية ثانية يبدو موقع المطبخ مختلفا بين البيوت الأربعة، وتفسير ذلك يعود الى تبعية المطبخ لبعض الأحيزة الفراغية دون أخرى، ففي البيت الأول لوحظ ان المطبخ متصل بفراغ الخدم وبقربه من قسم الرجال للتخديم، اما في البيت الثاني فيتميز بتوسطه جناح النوم وبقربه من جناح الرجال من ناحية ثانية. وفي البيت الثالث لوحظ انه يحتل قيمة تكاملية أعلى وبقربه أكثر من جناح النساء وتوسطه لأجنحة الخدم والرجال وضيوفهم. اما في البيت الرابع فلوحظ انعزاليته عن جناح النساء. وتفسير ذلك يبدو متناسبا مع الحياة الاجتماعية بالبيت الكويتي، اذ يبدو ان البيت يحتوي قسمين رئيسيين هما جناح الرجال ويكافؤه بالأهمية جناح النساء، وتتبع ذلك جناح الخدمة وبما فيها المطبخ الذي لا يتبع لقسم النسوة كما هي العادة في البيوت الاخرى كبغداد او صنعاء، إنما يكون العمل في المطبخ من اختصاص الخدم. وهذا بالتالي يفسر القيمة التكاملية العالية التي نجدها لجناح النساء اذ يتم تسهيل دخولهن وخروجهن دون الحاجة لانعزالهن التام عن بقية البيت كما هو الحال في بعض البيوت العربية التقليدية. من ذلك يبدو أن الأحيزة الفراغية تؤكد نمطية الحياة الاجتماعية وتكون انعكاسا صادقا لها، وهذا يؤكد ويدل على أننا يمكن من خلال البنية التركيبية الفيزيائية للبيت إعادة قراءة البيئة الاجتماعية والعكس بالعكس. والبيت الكويتي متميز بطبيعته التي توحي بالاستقلالية من ناحية لجناحيها، وفي نفس الوقت بالترابط الخفي الذي يعطي البيت كينونته المستقلة عن غيره من البيوت في المدن العربية التقليدية الاخرى.

البيت الكويتي التقليدي والأفنية المتعددة

من الطبيعية التركيبية المتميزة للبيت الكويتي التقليدي تعدد أفنيته، بحيث يصل عددها في البيوت الكبيرة مثل بيت الغانم إلى أربعة، لكل منها طبيعة ووظيفة وأهمية وفراغات محيطة بها داخل البيت ومصمم بطريقة تحدد دوره ووظيفته. وللفناء عموما في البيت التقليدي موقع وأهمية خاصة لا بد من التطرق لها بشيء من الخصوصية والتفصيل. وقد هام بسحر الأفنية في البيوت التقليدية الرواد من الرحالة والمستشرقين والأدباء وعشاق العمارة التقليدية. ولذلك يبدو مناسبا التوقف عند هذا العنصر الفراغي المتميز في البيت العربي التقليدي عموما، وفي البيت الكويتي خصوصا، وهو موضوع مساحتنا القادمة.■